الباب الأول

عصر الحياة الأولى

الفصل الأول

خـــلق الإنســـــان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصـــة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصـــارخ بين قصتى خلق الانســـان ، اللتين تقعان فى كل من الاصحاحين : الأول والثانى من ســـفر التكوين • ففى الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق فى اليوم الخامس من بدء الخليقة الســـمك والطيور ، بل كل الكائنات التى تعيش فى الماء أو الهـــواء ، وكيف أنه خلق فى اليوم الســـادس كل صـــنوف الحيوان التى تعيش على وجه الأرض ؛ وأخيرا خلق الانســـان ، الذكر والأنثى كليهما ، على صورته • ومن هذه القصة نستنتج أن الانســـان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقســـيم الانسان الى ذكر وأنثى ـــ وهو التقســـيم الذى تختص به الانســـانية ، قد تم على يدى الخـــالق نفسه ، وان لم يقـــدم الينا الكاتب أية معلومات تمكننا من التوفيق بين الخلق الثنائى للانســـان ووحدة الخالق • فاذا تجاوزنا تلك المشـــكلة الدينيـــة ، التى ربمـــا شقت على الفهم الانسانى ، فاننا نتجـــه الى مســـألة أخرى أبســـط منها ، تتصـــل بالســـق التاريخى للخـــلق ، ونتدبر العبارات التى تقول : ان الله خلق صنوف الحيوان الدنيـــا أول الأمر ، ثم أعقبها بخـــلق الانسان ، وأن الانســـان قد انقســـم الى ذكر وأنثى تم خلقهما فى آن واحد معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهى • هذا ما نقرؤه فى الاصحاح الأول من سفر التـــكوين • فاذا نحن انتقـــلنا الى الاصحاح الثـــانى ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماما عن هـــذه الرواية

الخطيرة ، بل انها لتتناقض معها كل التناقض ، اذ نفاجأ فيها بما يثير فينا الدهشة ، وهو أن الله خلق الانسان أولا ، ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده • أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل فى أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ••

وواضح أن نظام خلق الكائنات من حيث قيمتها معكوس فى كلتا الحكايتين •

ففى الحكاية الأولى يبدأ الاله بعملية خلق السمك ، ثم يمضى بعد ذلك فى خلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خلق الرجل والمرأة • •

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجل ، ويمضى بعد هذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهاية المرأة ، التى تشير بوضوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية • وليس هناك فى الحكاية الثانية أدنى اشارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببساطة فتقول : « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » [1] ••

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف على الرجل وحشته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجله ؛ فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبدو لتسليته ، ولكى تؤنس وحشته • وعند ذاك نظر الرجل اليها وسماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ؛ فخلق الله له فى النهاية — وكأنه كان قد يئس من أمره — المرأة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمها اليه لكى تكون زوجا له •

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٧ .

هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد ونقلهما معا ، دون أن يجهد نفسه فى أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما • فقصة الخلق فى الاصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتى الذى ألفه كتاب كهنوتيون فى أثناء السبى البابلى أو بعده • •

وأما قصة الخلق فى الاصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين ، أى أنه ألف — فيما يبدو — فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • والاختلاف بيّن بيْن وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتى يصور الاله فى صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها فى بساطة أن تكون فكانت • أما الكاتب المتقدم ، أو اليهودى ، فقد صور الاله فى صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرا من بين الأشجار التى كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التى اهتدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها • فالبساطة الجميلة بل المرح ، فى القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة فى القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذى يستخفى وراء صور الحياة البهيجة فى عصر البراءة ، تلك الصورة التى رسمها لنا الفنان اليهودى الكبير • ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ، فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التى خلقت بها — اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة — كل هذا يشير

اشـــارة كافية الى رأيه فى حقارة شـــأن المـــرأة • وترتيبا على هـــذا فان كرهه للمرأة ــ كمـــا يمكن أن نسميه بحق ــ يضفى على القصـــة لونا قاتمـــا ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتســـم بالحماقة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان • •

ولا تتميز القصـــة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منهـــا فحسب ، بل تتميز عنهـــا ـ فضـــلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقـــد أبقت على ملامح واضحة من البســـاطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حـــرص • وبنـــاء على هذا قـــد تقـــدم من العناصر ــ فى مجـــال المقـــارنة بالحكايات البدائية الســـاذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصـــور والبـــلاد المختلفة أن يشرحـــوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجـــه الأرض أكثر مما تقـــدمه الحكاية الكهونية • وسوف أورد فى الصفحات التالية بعض هـــذه الحـــكايات البســـيطة ••

ويبدو أن المؤلف اليهودى قد تصـــور أن الاله قد شـــكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخـــار تماما ، أو كما يفعـــل الطفل حين يشـــكل دمية من الطين • فبعـــد أن عجن الاله الطين وسواه على الصـــورة المعلومـــة ، بث فيه الـــروح بأن نفخ فى فم التمثـــال ومنخريه ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبى اليشع أنه أعـــاد بهـــا الحياة الى جسد الطفل الميت ابن الشـــونامية [1] ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عينى الطفل ، وفمه على مه ، وذلك لكى يمنح الجســـد بطبيعة الحـــال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب ــ تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، اذ أننا نجد أن كلمة « أدمة » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصيغة المؤنثة

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ ــ ٣٧ .

الكلمة آدم ، ومعناها الرجـل • ويبدو من نصـوص مختلفة فى الأدب البـابلى أن البابليين كذلك كانوا يرون أن الانسـان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصـل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلى تقـول : ان الاله « بل » [1] قطع رأسه ، وأن سـائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه لعجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكماء كل الحكمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله • ويروى فى الأساطير الفرعونية أن « خنم » [2] أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذى كان يشـكل عليه الفخار ••

وبالمثـل يحـكى فى الأسطورة الاغريقيـة أن بروميثوس [3] • الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطـين عند بانوبيوس التى تقع فى فوكيس [4] • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على ثـكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمسـافر يونانى كان يزور هذا المكان فى القرن الثانى الميلادى أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشرى كانت تفوح منهما قوية •

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن ، فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبى من تل بانوبيوس ، فى أسـفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو فى شكل حوائط متماسـكة وقلاع تتـوج

---

(١) بل هو الاسم البابلى للآلة « بعل »

(٢) الاله المصرى القديم خنم الذى تصوره المصريون براس كبش واسمه مرتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمة العربية « غنم »

(٣) هو خالق الجنس البشرى وبادىء الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة لااغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ؛ حيث أخذ نسر ينهش لحمه ، لأنه كان قد سرق النار وأحضرها للبشر . ثم اطلق هرقل سراحه فيما بعد . (المترجمة)

(٤) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق فى الزمن القديم . (المترجمة)

صـــخور القمة الرمادية • لقـــد كان قائظا فى أواخر أيام الخـــريف ، هو اليوم الأول من شـــهر نوفمبر . وقد بدا الوادى جافا كل الجفاف بعد صيف طويل لم تســـقط فيـــه الأمطـــار فى بلاد اليونان • ولذلك لم تكن قطرات الميـــاه تتســـاقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكنى أبصرت فى قاع الوادى تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربمـــا كانت مخلفات أثرية من الطين الذى خلق منـــه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض • وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر لانسان أو لمسكن سوى صف من القلاع المعفنة ، وشرفات تطـــل من فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التى ولت منذ زمن طويل • فالمنظر كله ــ شأن كثير من مناظر اليـــونان ــ كان ملائما لأن يثير فى النفس احساسا بحياة الانسان القصيرة الصاخبة اذا هى قيست بدوام الطبيعة وهدوئها وأمنها الظاهرى على الأقـــل • وقـــد ازداد هـــذا الاحساس عمقا فى نفسى حينما خلدت الى الراحة فى قيظ ذلك اليوم على قمة التل فى ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ، ونفذت ببصرى فى المنظر البعيد الغنى بذكريات الماضى ، فى حين كانت رائحة الزعتر البرى تفوح فى الأرجاء • وفى الجنـــوب كانت ذروة جبـــل هيليكون المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضـــة التى يتداخل بعضها فى بعض • أما فى الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية الهائلة ، وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كمـــا لو كانت ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ، وقد أشرفت على الوادى العميق الذى يتلائم جماله الرومانسى كل التلاؤم مع أفراح بروكنى وفيلوميلا [1] وأحزانهما ، وهمـــا الشخصيتان اللتـــان ربطت بينهمـــا الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ••

---

(١) « فيلوميلا » هى ابنة الملك الأثينى « باندويون » وفقا للأسطورة الاغريقية . وقد سلبها « بيروس » زوج اختها « بروكنى » شرفها ثم انتزع لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا . ولكن « بروكنى » انتقمت من «بيروس» بأن قتلت ابنه . واخذ « بيروس » بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت بروكنى الى بلبل كما حولت فيلوميلا الى طائر السنوتو وبذلك استطاعتا ان تهربا منـــه . (المترجمة)

أما فى الشمال عبر السهل الفسيح الذى ينحدر اليه تل بانوبيوس العارى ، فان العين تستقر على فجوة فى التلال يشق فيها نهر سيفيسسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع فى سفح التلال الصخرية العارية ، حتى تختفى ميـاهه العـكرة لا فى مستنقعات بحيرة كوبياك الممتدة النحيلة التى اختفت الآن ، ولكن فى كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى.وفى الشرق يتصل حطام شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال العارية التى يكون تل بانوبيوس جزءا منها . هناك فى هـذا السـهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضـا اشتبك الشرق والغرب فى الأزمنة الغابرة فى معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس [1] الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا . لقد كان هذا المنظر الذى بدا أمام عنى فى أحـد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب فى ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشتاء جبال اليونان الساحرة . وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى . وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق فى ضوء الشمس . وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط اللهامد ،الذى يخو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من جانب ــ اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها .

اننا لا نستطيع أن نشك فى أن مثل هـذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القـدماء ، قـد انتقلت الى الشـعوب المتحضرة القـديمة عن طريق

---

(١) « ميثريداتس » أو « ميثراداتس » ملك بونطوس . حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق.م. وقد سولت له اطماعه أن يستولى على آسيا الصغرى . فاشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة « سولا » من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق.م. وهزم « سولا » « ميثريداتس » واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته فى ارمينيا . وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل فى مملكته . (المترجمة)

أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود الذين يقطنون ضواحى ملبورن ، أن بندجل الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان ، فصنع الأقدام فى أول الأمر ، ثم الارجل فالجذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الديكاليبتوس وصنع منها شعرا لصقه فى رأسه ورجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته • وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنفه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو •

ويحكى الماءوريون ، سكان نيوزيلندة ، أن آلهما معينا يسمى بأسماء مختلفة هى تو ، وتيكى ، وتانى ، أخذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشكله على صورته ، معينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضاء • بحيث أصبحت الصورة مطابقة للاله • وبعد أن أتقن صنع نموذجه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ فى فمه ومنخره • وفى الحال اكتسبت الدمية الطينية الحياة وعطست • ولقد كان الرجل الذى صنعه « تيكى » آله الماء وربين شديد الشبه به الى درجة أن سماه « تيكى أهوا » أى شبيه تيكى ••

ومن الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى أن الاله « تاروا »، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين • فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كان الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز • ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم • فلما استغرق فى نومه انتزع منه عظمة من عظامه

(وتسمى العظمة فى لغتهم « ايفى ») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له • ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعد • وقد دونت هذه الرواية من أفواه أهالى تاهيتى فى السنين الأولى من وفود المبشرين اليهم • ويعلق المبشر « وليم اليس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلا : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين • ولكننى لم أعول على هذه الرواية ، على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مرارا أنها حكاية مأثورة عرفوها قبل أن تطأ قدم أى أجنبى أرض بلادهم • كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Ivi • وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » • وايفى Ivi كلمة أصلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمة فحسب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كما أنها تعنى ضحية الحرب • وعنى الرغم من تأكيد الأهالى لهذه المعانى ، فاننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيد فى القصة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الاولى للجنس البشرى » • ومهما يكن من شىء فان هذه الحكاية المأثورة بعينها قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينها فى تاهيتى • فأهالى فاكاؤمو أو جزيرة بادويش يقولون : ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع ترابا وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعا من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اسم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد • وقد روى كذلك أن الماءوريين يعتقدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول • وانتشار هذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كما اعتقد « اليس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقدس كما سمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا •

وعلى كل فان قصة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى

أمامن أخرى فى شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقدس ؛ الى درجة أننا لا يمكن أن نعدها مستقلة عنها • فالكارينيون سكان بورما يقولون : « ان الله خلق الرجل ، ولكن من أى شىء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية خلق المرأة ، ولكن من أى شىء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضلاع الرجل وخلق المرأة » • ومرة أخرى نجد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حكاية مأثورة ؛ مؤداها أن الله فى بادىء الأمر خلق الرجل الذى عاش وحده على وجه الأرض • وأنه بينما كان الرجل ينام وحده ذات مرة ؛ لمس الشيطان صدره ، فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى •

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نغمة السخرية عند كاتب سفر التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا فى خلق أمنا الأولى • ولنعد مرة أخرى الى أقاليم المحيط الهادى

ويروى سكان « جزر بيليو » [1] أن أخا وأخته صنعا رجالا من طين عجن بدماء صنوف من الحيوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال الأولين ونسلهم تحددت وفقا لخصائص صنوف الحيوان التى مزجت دماؤها بالطين الأصلى ؛ فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصفوا بالغدر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة • ووفقا لأسطورة ماليزية تروى فى جزيرة « موتا » احدى « جزر البانك » [2] أن البطل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه

---

(١) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر فى المحيط الباسفيكى وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا . (المترجمة)

(٢) « جزر البانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها خمسا وتقع فى الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى . واهم هذه الجزر فانوا ولافا وموتا وجاوة . (المترجمة)

التحديد من الطين الأحمر ،الذى أخذه من شواطىء النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » • وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجل يسير على قدميه فحسب • أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبت فيها • وقد أطلق أهالى « ماليكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة [1] ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير الذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ••

ويروى سكان اقليم نو ــ هو ــ روا ، الذى يقع فى جزر « كاى »[2] أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة • ووفقا للتورادجيين ، سكان « سيليبس الوسطى » [3] ، الذين يتحدثون اللغة البارئية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاى » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » الهة العالم السفلى ، أن يخلقا البشر ، فأسندا هذا العمل الى « اى كومبينجى » الذى صنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر • بعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق الذى يوصل العالم العلوى بالعالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صنعه وتحكم عليه • وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مستديرة استدارة كافية • وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضهما

---

(١) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهادى وسكانها الأصليون من الميلانيزيين . (المترجمة)

(٢) مجموعة جزر اندونيسية واكبرها جزيرة « توهو ــ شوت » . (المترجمة)

(٣) احدى الجزر الأندونيسية الكبرى . (المترجمة)

على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن فى كلا النموذجين منتفخة الى حد كبير • ولهذا صنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعد أن أحدث تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقل جزء من جسم الذكر الى المرأة • ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة فى النموذجين• وعندئذ صعد الاله « لاى » الى مسكنه فى المساء لكى يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة • ولكنه ــ فى أثناء هذا ــ ترك الريح ، اما نتيجة غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحياة اليهما ، فاستنشقهما النموذجان بدورهما • وهذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت • ويروى « الدياكيون » [1] ، الذين يسكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران • وقد حاول هذان الطائران أن يخلقا البشر من الشجر فى بادىء الأمر ، ولكن دون جدوى ، فنحتوا أشكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء • عندئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمر ، وناداياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه • عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشكل » • على أن بعض « الدياكيين » يرون حكاية أخرى مخالفة لهذه الحكاية ، فهم يعتقدون أن الها بعينه اسمه « سالا مباندیا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخذ يشكل الطين بمطرقته حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدرا لهم أن يولدوا فى الحياة • وعندما يسمع الدياكيون صوت حشرة عندهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامباندیا » وهو يقوم بعمله • ثم تستمر القصة فتحكى أن الآلهة أمرت « سلامباندیا » أن يصنع رجلا ، فصنعه من الحجر • ولكن التمثال

---

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون . وتعد « بورنيو » من أكبر جزر الملايو . (المترجمة)

كان أخرس ، ولذلك فقد رفضته الآلهة كما رفضت التمثال الأول • وفى المرة الثالثة صنع سلامبانديا رجلا من الطين كانت له القدرة على الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان الرجل الذى صنعته يبشر بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصنع أشكالا مثله » • عندئذ بدأ « سلامبفانديا » فى صنع النماذج البشرية — وهو مازال يقوم بصنعها مستعينا بسندانه وآلاته — فى مناطق مجهولة • فهو هناك يشكل الطين فى شكل أطفال ، وكلما فرغ من صنع أحدهم أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشىء الذى تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « السيف » نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ، نادت به أنثى • ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقا لرغبتهم ••

ويحفظ أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من سوموطرة ، قصيدة طويلة تصف قصة الخلق ، وينشدونها عندما يرقصون فى أثناء الاحتفال الجنائزى لوفاة أحد زعمائهم • وفى هذه القصيدة — المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشعر العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فكرة الجزء الأول بعبارات أخرى مختلفة بعض الشىء — نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ، فلما أبصر صورته فى الماء ، أخذ حفنة من التراب فى حجم البيضة وشكلها فى صورة تشبه صور الأجداد ، تلك التى كان أهالى « نياس » يصنعونها • وحين فرغ من ذلك وضع هذا التمثال فى كفة ميزان ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضعها بعد وزنها على شفتى التمثال الذى صنعه • عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحدث الرجل أو على نحو ما يتحدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » • وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشبه الاله فى شكله فانه لم يعقب ذرية • وقد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر

قد خلقا بعـد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ، ليعيش فى بيت شـيد من أشجار السرخس • ولكن « سيهاى » توفى ظهر يوم ، قبـل أن يرزقه الله بزوجة أو ولـد ، ولكن شـجرتين نبتتا من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ، ومن هـذا الزهر نشأت الأمراض • ثم نبتت من حنجرة « سيهاى » شجرة كان يستخلص منها الذهب ، كما نبتت من قلبه شـجرة أخرى ينتسب اليها الرجال • وفضـلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينيه اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى • وفى هـذه الأسطورة نلاحظ أن فـكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراءت للخالق بعد أن رأى صورته منعكسة على صفحة النبع الصافى •

وتحكى قبيلة « بيـلا ــ آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبـائل « منداناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصـة خلق الانسان الأول كما يلى : كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضـخما للغاية ، الى درجـة لا يمكن مقارنته بشىء معلوم لدينا • وكان هـذا الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبيـة ، وكان يجلس فوق السـحب فيشغل كل أجواز السماء • وحيث انه كان بطبعه نظيفا للغاية فقـد كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيـا • وكان يلقى بجانبه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعجه منظرها ، فخلق منها الأرض لكى يتخلص منها • ولمـا سر بعمله هذا قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما • وقد شكلهما مطابقين له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض • وقد كان هـذان الشـكلان أول مخلوقين بشريين • وبينما كان هذا الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحـد النموذجين فيما عـدا أنفه ، كما أتم صنع النموذج الثانى فيمـا عـدا أنفه وجزءا آخر منه ، جـاءه « تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصـنع أنفى الشكلين • وبعـد جـدل عنيف بينه وبين الخالق حول هـذا الموضـوع انتهى « تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين • ولكنه حينما شاء أن يركبهمـا

على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس • ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعده حول تركيب الأنفين الى درجة أن الخالق نفسه نسى كلية أن يكمل الجزء الباقى من الشكل الثانى ، وصعد الى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصة ثم تحدد النوع) ناقصا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » الى عالمه السفلى • ثم أخذت أمطار غزيرة تهطل بعد ذلك ، الى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين ، لأن المياه أخذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعكوسين • ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين فى هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما الى وضعها الطبيعى ••

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » ، وهى قبيلة وثنية تقطن جنوب شرق « ميندناو » أن خالقا بعينه يدعى « ديواتا » قد خلق فى بداية الحياة البحر والأرض وغرس أشجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخذ حفنتين من تراب وشكلهما فى هيئة شكلين آدميين ، ثم بصق عليهما فتحولا الى رجل وامرأة • أما الرجل الشيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز فسميت « توجليينج » • ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتا عظيما وزرع أنواعا أنواعا متعددة من الحبوب التى كانت المرأة قد قدمتها اليه •

وقد حكى « الكوميون » الذى يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهند الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التالية عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشجار والحيوانات الزاحفة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك شكل رجلا واحدا وامرأة واحدة من الطين • على أن حية كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد للنوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله • وتكرر حدوث هذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقد صوابه ، اذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه

أن يتم صنع النموذجين فى أقل من أثنى عشرة ساعة • واذا هو لم يسترح بعد تعب النهار « فان حالته تسوء » ــ على حد تعبير القصاص الكومى ــ ولهذا فقد كاد الاله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه فى نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات فصباح ، وشكل نموذجا لكلب وبث فيه الحياة ، وعينه حارسا على النموذجين الآدميين • فلما تسللت الحية اليهما نبح الكلب فهربت الحية فزعا • وهذا هو السبب فى أن الكلاب تأخذ فى النباح عندما يحتضر الانسان • على أن « الكوميين » يعتقدون أن الاله فى هذه الأيام يغط فى نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب • ولو لم ينم الاله لما كان هناك مرض أو موت ، فالحية لا تأتى وتنتزعنا إلاّ فى أثناء الفترة التى ينام فيها الإله • وشبيه بهذه الحكاية حكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » • فهم يقولون : ان الله خلق الرجل فى بادىء الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيد النظر فيما صنعه يداه وجد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حدث هذا مرة أخرى خلق الاله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنح الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى • وبهذا أبقى على عمل الاله •

وقد برزت هذه الحكاية نفسها ملونة بمسحة طفيفة من الميثولوجيا الهندوكية عند قبيلة « كوركوس » ، وهى قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى فى الهند • وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « سيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلسلة جبال « فندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة ، فتضرع الى الاله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان • عندئذ أرسل « ماهاديو » ، الذى يعنون به « سيفا » ، غرابا لكى يبحث له عن كثيب الرمال ذى التربة الحمراء ، فعثر الطائر على هذا الكثيب بين جبال « بيتول » • عندئذ رحل الاله الى هذا المكان ، وأخذ حفنة من التربة الحمراء وصنع منها تمثالين لرجل ومرأة • ولم يكد الاله يفعل هذا حتى بزغ حصانان

ناريان من الأرض ؛ أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب • وعاود الاله المحاولة فى يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطم بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صنع الاله تمثالا لكلب ونفث فيه أنفاس الحياة ؛ فاستطاع الكلب أن يبعد حصانى « اندرا » الناريين عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصنع تمثالى الرجل والمرأة دون ازعاج ؛ ومنحهما الحياة وسماهما « مولا » و « مولاى » • وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة «كروكوس » •

ويروى عن قبيلة « موندا » ، وهى قبيلة بدائية قديمة فى « شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحكاية السابقة مع بعض الاختلاف المثير ، تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قد شكل تمثالين من الطين : أحدهما فى صورة رجل ، والآخر فى صورة أمرأة ، ولكنه قبل أن يمنحهما الحياة داسهما الحصان بحوافره ، ناظرا بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصان فى تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هذه الأيام • ولما رأى اله الشمس أن الحصان قد حطم تمثاليه خلق حشرة العنكبوت أولا ، ثم عاد فشكل تمثالين آخرين شبيهين بالتمثالين اللذين داسهما الحصان بحوافره ، وأمر العنكبوت بأن يحرسهما ، فنسج العنكبوت خيوطه حول التمثالين بطريقة لم تمكن الحصان من أن يدوس التمثالين مرة أخرى بحوافره • وبعد ذلك تمكن اله الشمس من أن ينفث الحياة فى التمثالين اللذين أصبحا أول بشرين على وجه الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصل فنلندى ، حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التورادجيين» عن الخلق • فهم يرون أن الاله شكل جسم الانسان من الطين ؛ ثم صعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعد أن ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ،

حتى اقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ؛ واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كى يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية فى القذارة ، الى درجة أن الاله عندما أبصر ذلك ؛ لم يتمكن من تنظيفه ؛ ووجد نفسه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهذا هو السبب فى أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل القذارة • وفى ذات اليوم نفسه صب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذى استحق عليه العقاب •

فاذا انتقلنا الى أفريقيا فاننا نجد أن أسطورة خلق الانسان من الطين تنتشر بين قبائل الشلوك التى تسكن اقليم النيل الأبيض • وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذى خلقت منه • فيروى فى حكاياتهم أن الخالق « جووك » شكل الناس جميعا من التراب • وأنه كان يتجول فى أنحاء العالم ؛ فى أثناء قيامه بعمله • ففى بلاد الأجناس البيضاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقى ؛ فشكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء •• ثم وفد على أرض مصر ؛ فشكل من طمى النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية •• وأخيرا وصل الى أرض الشلوك ؛ ووجد بها تربة سوداء ؛ فشكل منها الناس ذوى البشرة السوداء •

وقد اتبع الاله « جووك » الطريقة الآتية فى تشكيل النموذج الانسانى : كان يأخذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجرى والخروج الى الحقول ؛ ولهذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ؛ ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضار بالزرع » • ومن ثم صنع له ذراعين • ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهذا

الانسان أن يرى النبات ، ولهـذا فسأمنحه عينين » • وركب له عينين فى وجهه • ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فما » • ومنحه الفم • ثم تدبر الأمر وقال : « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على الكلام والرقص والغناء والصراخ ولكى يستطيع أن يفعل كل هذا فهو فى حاجة الى لسان » • ثم ركب له لسانا • وأخيرا قال لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهـذا فهو فى حاجة الى أذنين » • ثم ركب له أذنين وبعث به على هـذا النحو انسانا كاملا الى الحيـاة • ويحـكى « الفانيون » الذين يسـكنون فى غرب أفريقيـا ، أن الله خلق الانسان فى بادىء الأمر على شـكل سحلية من الطين ، ثم وضعه فى حوض به ماء مدة سبعة أيام • وفى نهاية اليـوم السابع صاح به وقال له : « اصـعد من المـاء » • فبرز من المـاء شكل فى هيئة رجل لا فى هيئـة سحلية • وتعتقـد القبائل التى تسكن « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » [1] ، ان الله مازال حتى اليوم يشـكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليـل من المـاء الذى يبلل به التراب ، سـكبه على الأرض ، وخلق منـه الأشرار والعصاة من الناس • فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيـد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الردىء • وقد شـكل الاله الرجل فى بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شـكل المرأة من بعـده • فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما أثر ذلك الى الحيـاة •

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسـكنون فيما بين

---

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التى تنتمى الى الزنوج السودانيين وتقطن فى جنوب « تونجو » و « داهومى » . وهى تكون منذ عـام ١٩٥٧ العنصر السـائد فى جمهورية « تنجو » . (المترجمة)

ألاســكا وبراجواى فى أمريكا أســطورة خلق الانسان من الطين • فالاسكيمو الذين يسكنون فى « بوينت بارو » فى ألاســكا يقولون انه مضى زمن على الوجــود لم يكن فيه رجــل على وجه الأرض ، واستمر الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام فى « بوينت بارو » ، وشــكل رجلا من الطين ، ثم وضــعه على الشاطىء ليجف ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة • ويحكى قوم آخرون من اســكيمو ألاســكا أن الغراب شــكل أول امرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول رجــل ، ثم ألصــق فى مؤخر رأسها عشبا مائيا لكى يكون لها شعرا ، ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصبت امرأة شابة جميلة • وقــد حــكى الهنــود « الاكاجشميم » فى كاليفورنيا ان كائنــا مهولا كان يدعى « شينجشنيش » خلــق الانســان من الطــين الذى وجــده على شواطىء احــدى البحيرات • وقد قام بخلق الرجل والمرأة من الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم فى تلك البقاع •

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول رجل وامرأة وذلك رفقا لرواية الهنود « المايــدو » الذين يســكنون كاليفورنيا وقد هبطت هــذه الشخصية من السماء عن طريق حبــل مصنوع من الريش . وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى وجهــه فلم يره أحــد قط • وفى عصر أحــد الأيام أخــذت هــذه الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالمــاء ، وصنعت منها شــكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة • وعنــدما عادت هــذه الشخصية الى مسكنها العلوى وضــعت الرجل عنــد جانبها الأيمن ، والمرأة عند جانبها الأيسر ، ورقدت بينهما ، وأخــذ العرق يتصــبب منها طوال عصر هــذا اليوم وفى أثناء الليــل • وفى الصباح الباكر أخــذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك • ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار فى الأرض . فاندلعت النار فى الحال • وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعى البياض ، وليس فى الناس اليوم من يماثلهما فى نصاعتهما • وكذلك كانت عيونهما

وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براقة ، كما كانا غاية فى الوسامة • وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكليه أياد ؛ لأنه لم يهتد الى الطريقة المثلى فى تشكيلهما •

ثم أبصر « الكويوت » ؛ أو ذئب البراري الذى يقوم بدور كبير فى أساطير الهنود الغربيين ؛ أبصر التمثالين فيما بعد ، ورأى ضرورة خلق أياد لهما مثل يديه • ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلا : « لا ؛ بل ان أيديهما ستكون مثل يدى » • ومن ثم أكمل صنع الزوجين • فلما سأله « الكويوت » عن سبب صنعه الأيادى على هذا النحو أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » • وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول أمرأة « المرأة نجمة الصباح » •

ويروى الهنود « الديجونيو » أو — كما يسمون أنفسهم — « الكواكيايس » وهم الهنود الذين يسكنون الركن الجنوبى الغربى الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يرون أسطورة يفسرون بها كيف خلق العالم والجنس البشرى على نحو ما هما عليه الآن • فهم يقولون انه لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطا واحدا قديم العهد شاسعا • وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشاييباكومات » ؛ وكان كلاهما يعيش بعينين مغمضتين ؛ لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصابتهما المياه الملحة بالعمى • وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى سطح المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئا سوى الماء • ثم اتخذ الأخ الأصغر طريقه الى السطح كذلك ؛ ولكنه فتح عينيه فى غير حذر فى أثناء صعوده ؛ فأصيب بالعمى ؛ فلما وصل الى السطح لم يبصر شيئا • ومن ثم فقد هبط ثانيا الى قاع المحيط • ولما وجد الأخ الأكبر نفسه وحيدا على سطح الماء وشرع فى خلق تراب صالح للسكنى عليه من مهملات المحيط ؛ فخلق فى أول الأمر نملا أحمر صغيرا غطى

المياه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح المياه الى جسم صلب • وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلما ؛ اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعد ؛ فلما خلق « تشاييباكومات » بعد ذلك طيورا معينة سوداء مفلطحة المناقير حدث أنها ضلت طريقها فى الظلام ولم تجد لها مستقرا • وبعد ذلك أخذ « تشاييباكومات » ثلاثة أنواع من الطين : أحمر وأصفر وأسود ؛ وصنع منها شيئا مستديرا مسطحا أمسكه فى يده وقذف به نحو السماء فالتصق بها ؛ وأخذ ينبعث منه ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشاييباكومات » لم يقنع بهذا الضوء الخافت الذى ينبعث من هذا النجم الشاحب ، فأخذ مزيدا من الطين وشكله على هيئة قرص آخر مستدير ومسطح ، وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ؛ وأصبح هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشاييباكومات » قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ؛ وشكل منها الرجل • ثم أخذ ضلعا من الرجل وشكل منه المرأة التى أطلق عليها اسم « سينى أكساو » ؛ ومعناه المرأة الأولى • وكلمة « سينى » تعنى المرأة ؛ وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناسلت البشرية من هذين الشكلين اللذين شكلهما هذا الخالق من الطين ••

وعلى هذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكو » الذين يسكنون أريزونا أنه لم يكن فى بداية الحياة سوى الماء يعم كل البقاع ؛ وأن الهتين — وربما كانتا الهتين — كلتاهما كانت تدعى « هورويتج وهتى » كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد استطاعت هاتان الالهتان بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وسط المياه • على أن الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجديدة ، أنه ليس هناك كائن حى من أى نوع يعيش على هذه الأرض ، فلفتت نظر الالهتين الى هذا العيب الجوهرى • وبناء على ذلك اجتمعت الآلهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخذت الالهة التى تسكن شرقا من

قوس قزح جسرا عبرت عليه الى اختها التى تسكن غربا • وبعد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقا طائرا صغيرا ، فشكلت الهة الشرق طائرا صغيرا بلغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة فى الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف فى أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، فلما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم يرأثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيور ، وبعثتا بها الى الأرض لكى تعمرها • وفى نهاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقا الانسان ، فأخذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبثت الالهتان الحياة فى الرجل والمرأة على نحو ما فعلتا مع الطيور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون فى أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين فى يده ثم مزجها بعرق جسده وصنع من هذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحياة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحد كهنة الهنود « الناقشيز » الذين يسكنون « لويزيانا » ــ قال لـ « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من الطين الذى يشبه ما يستعمله صانع الخزف فى صنع الأوانى الخزفية ، وشكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعد أن تفحصه ووجد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحياة فى التمثال ، وأخذ الرجل يكبر ، كما أخذ يسير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هذا الرجل الى نفسه فوجد نفسه مصورا أحسن تصوير » • أما بالنسبة للطريقة التى خلقت بها المرأة فقد أقر الكاهن لـ « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين فى طريقة خلقهما • وهو يعتقد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحدة •

وقد روى « المتشواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير

« توكاباشا » شكل الرجل والمرأة فى بادىء الأمر من الطين ؛ ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين الماء وتفتت • ولكى يتفادى الاله هذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة فى هذه المرة كذلك • وأخيرا فقد قام بتشكيلهما من المعدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هذه المرة ، اذ أنه أحكم صنعهما بحيث لم تعد المياه تتسرب اليهما ؛ فلما نزلا الى الماء لكى يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حكى هنود « بيرو » لقس أسبانى من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهور مرة أخرى فى « تياهوانكو » بعد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عدا رجل وامرأة • فهناك فى « تياهوانكو » التى تبعد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شكل أفراد كل أمة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أردية الأمم الأخرى • واذا كان انفرد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ؛ وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحدث اللغة التى كانت تتحدث بها ، وتغنى الأغانى التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبوب والأطعمة الخاصة بها • ولما فرغ الخالق من تشكيل شخوص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحياة فى هذه الأشكال : الذكور منها والاناث ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصعد منه » • ويعتقد الهنود « اللينجوا » الذين يسكنون « براجواى » أن الخالق كان فى شكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر « مثل التوأم السيامى » • وفى هذه الصورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا — وهما على هذه الصورة غير الملائمة — مع جنس من الكائنات

القوية التى كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توسل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، فاستجاب لمطلبهما ، ومنحهما القـــدرة على التكاثر ، ومن ثم أصبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقد كف ، بعد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعـــد ذلك بأى عمل ايجابى خير ، كما لم يعد يهتم لشىء فيه • وتذكرنا هـــذه الرواية بحـــكاية أرستوفان الخيـــالية فى « محاورات أفلاطون » تلك الحـــكاية التى يحكى فيها أرستوفان عن الشكل الأصلى للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجـــل قـــد خلقا فى بداية الأمر ملتحمين فى شـــكل واحـــد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جـــاء زيوس فشقهما من النصـــف ، وفصـــل الجنسين أحـــدهما عن الآخر » •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات السالفة الذكر تتفق جميعا فى أن الطين الذى شـــكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصـــد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهودى قد أغفل ، فى حـــكايته فى سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذى استخدمه الله فى خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين فى حدسنا ، أن الطين الذى استخدم فى هـــذه المناسبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية التى تطلق على الرجل فى العموم هى « آدم » ، والكلمة التى تطلق على الأرض هى « أدمة » ، كما أن الكلمة التى تطلق على اللون الأحمر هى « أدوم » • وبذلك نصـــل عن طريق التسلسل الطبيعى ، بل الضرورى ، للعقل ، الى أن الأبوين الأولين قـــد خلقا من التراب الأحمر • فاذا ساورنا شـــك فى هذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى اليوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهـــذا يشير — وفقا لرأى الكتاب الذى لاحظ هـــذه الملاحظة وعلق عليها فى انصاف — « الى العلاقة بين آدم والتربة التى خلق منهـــا • وهـــذا اللون يبدو بشـــكل واضح عندما تقلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فالشىء اللافت أن الطبيعة نفســـها تحمل شواهد على الدقـــة الأدبية فى الكتاب المقدس •